

العروبة الجبارة

شيخ العرب مع جمال باشا

حدثت هذا الحادث في آخر الحرب الكبرى الأولى، وكان اسم جمالي باشا قائد الجيش
العثماني في سوريا، لما كانه يأتيه من الظلم والشنق في من يقال أنهم أعداء الدولة،
في سنة ١٩١٤م في قلب اللس. في أواخر الحرب حدث ما يأتي :

حدث الأمير الذي جدي بك الـ مكتب نخامة جمال باشا قائد الجيش العثماني في سوريا
يستعمل في جانبه شيخاً من مشايخ العرب، قبحس العزة من أغرما لبسه أمراء العرب
الكبار، عزيل القامة، معتز الطامة، عريض المكين، كبير الرأس، طلق الهيا، مشرق
المنفذ، معتز رد الوجنتين، عريض الشاربين، كثيف الحاجبين، ممتليء الساهدين، والكثمين،
وكل ما فيه يدل على أنه من جباورة العصر، تكاد عيناه تندحان شرراً لسوته، ومقلناه
تشدان أشعة الذكاه الساطع. وتكسو ذقنه حية عربية سليمة تغمر عنقه وأعلى صدره،
وقد وحفظها الشيب قليلاً. وفي نظرائه وقار يدل عليه جبروت الملوك والفراد.

لما دخل قال : « السلام على نخامة القائد الكبير جمال باشا » فما شعر جمال إلا وهو
يقف أخيراً برؤاه هذه الهيئة. ثم قعد توتاً. ورأى الشيخ الـ عين مكتب جمال باشا
مقعداً فاستري عليه. فاستغرب جمال باشا قبل الاستغراب أن الشيخ قعد من غير أن يؤذن
له، وما قعد أحد في حضرة جمال، فكيف يجسر هذا للشيخ أن يقعد. بل قل ما من
أحد من الناس مما كانت صفة ورتبه وقف لدى جمال باشا أو واجهه إلا ارتعد فزعاً.
لا لأن هيت رهيبة، بل لأن ما سمع عن جبروته في التكيل والشنق وقسوة الاضطهاد قد
اشهر في جميع الأقطار التي تحت سلطانه ونهاوزها إلى غيرها. فكيف جسر هذا
العربي أن يقعد غير ما بال مجبروت جمال. ولكن هنا هية العربي تقابست على الجبروت
الاضطجع. فذلك لم يجسر جمال أن ينهر الشيخ ويسأله كيف يقعد من غير إذن. ولكن
جمالاً قال لتضابط حمدي بك المترجم بالتركية : « قل له : إنها لثلة أذهب منه أن يقعد من
غير استئذان ».

فارتبك حمدي بك واستصعب أن يترجم هذا القول للشيخ الوقور. على أن جمال
التبريد يحذر وقال: «لماذا لا تقول له؟»

فقال حمدي بك بالعربية للشيخ: «لم تجر العادة أن يقدم أحد في حضرة القائد الأعظم
قبل أن يأذن له»

فقال الشيخ: «ولكن العادة عندنا أنه متى دخل علينا أي إنسان مهما كان وضعياً نرد
له التحية ونشير إليه في الحال أن يقدم: أما فأنتك فلم يرد التحية»

فترجم حمدي بك هذا الكلام بحروفه، فقال جمال موجهاً الخشاب إلى الشيخ:
«ألا تعلم أنك معتقل؟»

فباغضه الشيخ بالتركية، لأنه يعرفها جيداً منذ كان طالب علم في الابتدائية: «لا لست
معتقلاً» وما جئت إلا الآن أحد الضابط قال لي أن جمال باشا يريد مقابلتك، فأسرعت إلى
جمال باشا لآري ماذا يريد مني. ولو قال ذلك الضابط أي معتقل ما ترددت في المجيء أيضاً.
فقال جمال: فإذا علمت الآن أنك معتقل».

الآن علمت أنك تبغني اعتقالي. ولكن اعلم أنه لا يستطيع أحد أن يعتقلني. فأنا
هنا أشغل وأخرج بكل حرية.

فقال جمال: لا تظن أننا نحسب حساباً لهذه المنجية العربية.

فقال الشيخ: «نحن لا نلتزم في معاملة القواد والأمراء والملوك على المنجية بل على
القوة الحقيقية لا الوهمية»

وكان جمال ينظر فيه وكل هنية يفض نظره لأنه لا يستطيع أن يسد القوة النفاذة
التي في عينيه. فقال له — «ماذا تعني؟»

— أعني أن هندي الوفاً من المقاتلين، كل واحد منهم بعشرة من جنودك. وهندي
من للسادق الحديثة الطراز الوفاً كل بندقية منها تحطم عشرة من بناطلك. وهندي مئات من
المدافع النخمة كل مدفع منها يحطم عشرات من مدافعك القديمة. وهندي ...
فصاح به جمال وكاد يفهم ما يقول: سه، سه كئي تهربلاً. هذا التهويل لا يقلقل
قندي في موطنها. ما اسمك؟

— اسمي زعيم العرب الأكبر

قال حمدي: — اسمك. اسمك. اسمك؟

— ألا يعجبك هذا الاسم؟ ماذا يعجبك أن كان اسمي علياً أو محمداً ما دام هذا الثوب
يشغل شيخ العرب كنهم؟ ألم تنهم بعد أنك تخاطب أمير جميع أمراء العرب؟ والأقول:

كيف تمتثل شخصاً لا تعرف من هو، حتى اسمه لا تعرفه
 طمحي غضب جبار حتى كاد ينفضني بسدسه ولكن يده خائفة ولم تنفر فقال للبرالاي
 حمدي: خذني الى ابيهم الآخر ينتظر فيه الى أن أدعوه
 فأبلغ حمدي الى الشيخ هذا الأمر وأشار اليه أن يقوم فقال الشيخ: إن كانت مهمة
 جناب القائد قد انتهت فأخرج نهائياً. والأمل أن أخرج من هنا حتى ينتهي غرض جمال
 باشا مني

فقال حمدي: يريد نخامة الباشا أن يختلي ببعض الأشخاص هنا
 - فليختل بهم حيث هم منتظرون لا هنا.

فظر فيه جمال نظرة حادة وما لبثت نظرته ان تكسرت لدى نظرة الشيخ. ثم تمض
 متخيفاً وخرج الى هو آخر واستدعى بعض الأسياد الكبار من العرب وسألهم:
 ما ذا تعرفون عن هذا الشيخ الذي حمدي الآن؟
 فقالوا تعرف انه زعيم الوحدة العربية. وقد جمع كل امراء العرب فانضموا تحت
 زعامته منقبين.

سألهم عن اسمه، فقال أحدهم يقال أنه يدعى الامير سطان الاعظمي
 وفيما كان جمال لا يزال يسأل الانصار عنه قام الشيخ من مكانه واتجه الى شباك يشرف
 على الميدان الذي أمام القصر دار القيادة العليا. فاعترضه حمدي وقال له: ان بقعد في مكانه
 لكلاياني جمال ويراها يطل فيضب. أما الشيخ فلم يبال بل اطل من الشباك وأجال نظره
 في من ينتشرون في الميدان وأبدى اشارات لم يفهمها حمدي
 ثم دخل جمال وغضب اذ رأى الشيخ لدى الشباك. وقعد كل في مكانه. وقال جمال:
 عشت لماذا أنت معتقل؟

- قلت لك اني لست معتقلاً. لا يستطيع وزيرك ولا رئيس وزارتك ولا سلطانك
 ان يعتقلني. فأقطع عن هذا الزعم الموهوم. وقل ماذا تريد مني؟ كني دغاباً يا باشا
 قال جمال: الست أنت الذي جمع جميع قبائل العرب في اتحاد عربي عام:
 - نعم. أنا هم. نعم جميعهم في اتحاد عربي شامل جميع العرب.
 - وعرب الحجاز أيضاً؟
 - نعم وعرب نجد واليمن وتبالة وحضرموت والبحرين، وبسند ذلك عرب سوريا
 والعراق، وبعد ذلك مصر وفلسطين، وبعد ذلك مراکش وتونس والجزائر. فإدا بعد؟
 - إذا لا تنكر خيانتك للدولة.

-- معاذ الله . ليست هذه حياة لندوة بل هي أمانة لعرب .

وكان جمال يكلمهم ردهم بسبع كلمات للشيخ سظام الخوري وبكاد وانتهى لدي ندوة عزمه .
فهذا الذي كانت ترتفع فرانس الناس التي نظراته القادحة تمرر التهديد كاد ينتفض جزعاً
من جراء كلمات الشيخ التي كانت تصدر من جميع جوانب العرب التي تناهز الثمانين مليوناً متألمة
على الترك، وكانت تنفي عن حلم كاد يحمله . فأجاب بتؤدة -- ماذا تريدون من اتحادكم هذا ؟
فقال سظام بسناد منطقي -- هذا حلف عربي واسع النطاق تريد به استفادتنا لأصلاح
أحوالنا لأننا أصبحنا على شفا انقلاب عظيم في هذه الحرب التي أضع أوزارها غداً . فتود
أن يوثب أمورنا منذ اليوم . نحن يتحدون تمام الاتحاد . فإذا رامت الدولة العثمانية أن
تنتفع من اتحادنا فنشد أوزارها وإلا فنبتم بشؤوننا مستقلين .

فقال جمال منتفضاً ، ان مصيبة « الدولة العلية » جاءت عن يد العرب .

فأجاب الشيخ محمد ريف فما قلب جمال الصليب : لا ، بل ميايب العرب والأتراك
أيضاً جاء من نفس الدولة التي تنتعونا « بالدولة العلية » لو أحسبت الدولة للعرب وجميع
رعاياها وواستهم بالعدل وحسنت الأحوال الاجتماعية والاقتصادية وقصرت صلها على
الإصلاح لسكنت التبرم تحمل على الامبراطورية الرومانية ، وكانت سيده الدول . وكانت
الدولة العثمانية تملك أكثر مما كانت تملك الامبراطورية الرومانية في إبان عزمها . وكانت
الامبراطورية البريطانية تخشى الآن سردها، وكان الفخر الذي للإنكليزي والتبجح الذي
يثار به لك ولي . . .

وفي تلك اللحظة دخل ضابط وقدم للقائد العظيم تلغرافاً ورد من خط القتال . فقرأ
جمال المشفق لونه . فأدرك الشيخ سظام أن التلغراف ينذو باختراق الجيش في القتال .
وبقي جمال رهبة متجنباً يضرب أحماساً بأسداس . ثم قال -- لقد تماديت في القصة وأنت
مستقل . خذ يا حمدي الى السجن .

فتقدم حمدي بك الى الشيخ لكي يصطحبه . فالتفض الشيخ ويزق وقال : كني ما أنتم
فيه من غرور وعنجهية وحسبكم هذا المبدأان . عد الى مكانك يا حمدي . أفي حراً أخرج مني
أشياء وأدخل مني أشياء .

وكان قد قارب إلى الباب . فالتفت الى جمال كأنه يودعه : فرأى في يده مسدداً فارتد
راجعاً إليه ووقف أمامه وألقى مرفقيه على المكتب التريض الى أن صار على قاب قوسين من
المهندس ، حتى دهمش جمال لجرأته العتية ولم يطاوعه أمسه أن يضغط على الزناد . وقال الشيخ
بالتركية الفصحى : حاذر أن تكون جباناً فادراً يا جمال . ما هذا العدو شيمة القائد الكبير

أنت تعلم أن بعض رجالك جرؤوني من سلاحني قبل أن أدخل إليك . فلم أمانع احتراماً لمقامك، ولا لي كنت أعتقد أن لقائه الكبير الشرف السعدي الذي يسميه عن انفسه والآن أنبهك الى سوء مصيرك إذا مددت لي يداً بسره . في مئذنت ساعة اذا لم أرجع الي رجائي سلباً يدخلون هذه المدينة على جنث تلى رحاك ويغيبون بهذا انفسهم . وفي ساعة واحدة يدكروا الى الحضيض من فيه ، هم يعرفون أي هنا الآن ، ويعرفون أن هناك أصبح سحر جاك ، فتأخري عنهم يقذف بهم الى هنا لا محالة ، ولا تستطيع فراك انصلياً أن تقف في سبيلهم

مخافاً

فقال جمال : كيف يعرفون أنك هنا وأنت لم تكن هنا قبل ساعة

- أجل أنا هنا أنتكر وأتكلّم وهم هناك يشبهون . رد مسدّسك الى مكانه . عندنا

لوف مثله ، لا نجاري بحياتك وحياتك جيشك المهزوم

فضاق جمال ذرهكاً بهذا الشيخ وفكر طويلاً منطرب البال ، والشيخ لا يزال مستنداً مرتفيع على المكتب منظرأ . ثم ردّ جمال المسدّس الى مكانه وقال : اجلس يا شيخ مستظماً ، لي كلام معك خطير

فتعد الشيخ على المقعد الى جانبه . وقال جمال : - لا أراك اذا جئتو شملكم . وقاطنة دخول ضابط اليه بتلغراف . فقفه يده مضطربة وقرأه ككفره . ثم قال : نعم اذا جئتو شملكم ايها العرب ونسدتو استقلالكم ، فالاستقلال أمية كل أمة ، والاتحاد هو الطريق الوحيد اليه . واذا كنتم متعدين على هذا الخط الذي أرى فلا ريب انكم تحصلون على الاستقلال . لذلك لي اقتراح عليكم خبير الشاذ فيه ضمانة لقضيتكم . فارأيك ؟

- اسمعني الاقتراح لكي يكون لي رأي فيه

حسناً . أود أن أعرض على الدولة الدالية مشروع استقلالكم الداخلي . وأكون أنا فيه والياً أعلى ويكون شاملاً . شاملاً جميع الامم العربية التي سحرر منها ما وقع في أيدي دول أجنبية

وهنا تبسم الشيخ واستمر جمال يتكلم : - وتكون وظيفتي أن أدرعي دستوركم الذي تصدقته لهذا الاستقلال . ولا اتدخل في شؤونكم الداخلية . فتكون للدولة العربية السيطرة على البلاد العربية حيطرة اسمية كما كانت سيطرتها على مصر قبل الاحتلال الانكليزي . وأظنه يكون من مصلحتكم أن يكون هذا الاستقلال مستنداً الى قوة الدولة بعد خروجها من هذه الحرب منتصرة الى شاء الله

وعنا تبسم الشيخ سظام اهتمامة هريصة واستمر جمال يتكلم : - والدولة لي مشاير

ذلك اتاوة سنوية منكم وسند الآن تتقدمون لشد أزرها في الميدان المصري. فأرأيتك الآن؟

فأجاب الشيخ : مشروع حسن جداً يجب أن أعرضه على زبائن أمراء العرب

— متى يمكنك أن تعرضه وتجاوبني ؟

— غداً مساءً .

— حسن جداً . سأرسل منك وفداً من رجال السياسة عندي إذ لا بد أن تحتاج إلى

خبرتهم وعلمهم في تقرير بعض النقاط . أنت تدعو الأمراء إلى أول القنطرة « بعيدين عن

الرقباء إذ لا يخفى عليك أن المشروع قد يهزك قلبه بعض الأكارم ويراقظ الظنون السبئية .

وسأرسل وفداً آخر يعود منكم عند عودتكم لئلا يتعرفن لكم بعض جنودنا الذين يجولون

تديرنا هذا .

وركب الشيخ سظام مع عشرة فرسان من رجال جمال باشا .

في مساء الغد عاد الشيخ سظام وورائه الفرسان السياسيون، وسعد بجوارده توأعلى

درج القصر المريض حتى بلغ الرخبة التي فوق الدرج . فخرج جمال على قرقمة جوارده الجواد

ودهن إذ رأى الشيخ أمير الأتباع العربي يكاد يدخل بجوارده إلى البهو وقال بحدة : ما هذا

الذي فعلت . أيها الشيخ؟ ما الخبر؟ .

فترجل الشيخ سظام وترك عنان جوارده والجواد لا يتحرك في مكانه ولا يتحرك في

موقفه وقال : متجهياً : — كنت أعتقد أنك تصدق الصدق العسكري وتحترم شرف

توبك الجندي .

— احترمه طبعاً

— إذا فامعنى أن توصل طابوراً من جنودك لكي يتصيدوا ملائي الأمراء جميعاً ؟

إنها عملية خبيثة لا مثيل لها يا جمال

فقال جمال ماكرأ : لا غم لي بما تقول :

— أظن ضا ط ذلك الطابور نزل عليهم وحي بأن مثني أمير من أمراء العرب قدسبون

إلى القنطرة فتصدوا وألهم بناء على هذا الوحي . أليس هو وحي جمال ؟ ألم نرهم حين كنا ذاهبين

ولما هذنا وأينما نزلنا بها جسرنا . فأوعزت للأمراء أن رجسوا حالاً وألا يحتكروا بهم بتاتاً .

جئت مع رجالك لكي أبلغك خبر حياتك . فأعلم أنه يمثل هذه الحيل لا يحدث اتفاق بيننا

يا هذا . ولا سباً لأن الهزيمة أمامكم ضد حدود فلسطين . وقد شعرت بها من قراءتك

للتفريغين .

وتم الشيخ أن يركب فأسك جمال بيده قائلاً: «ببلا لا نعمل . ولا نحمك بلا تحقيق .
ليس لي علم بهذا الطابور سوى أني أرسلته في « دورية كشافه » ولم أعد أعلم أين هو .
ونيت خبره إذ لم ترد لي منه أخبار . فكان واثقاً أن ما حدث كان خطأ . وسأرسل منك
وقدأ آخر عسكرياً كبيراً بحول دون حدوث خطأ كهذا . أبها الشيخ أن مستقبلكم
ومستقبل الدولة يتوقف على تنفيذ هذا المشروع . وقد أرسلت رسالة رقية بهذا الشأن ال
رئيس الوزراء ، واني لمؤكد أنه سبهم بتحقيقه . فأرجو أن تعود حالاً وتداولوا الأمر
ثم ترجع إلي ببيشارة سارة»

والظاهر أن أخبار الحرب التي كانت ترد الى جمال باشا من ميدان سيناء كانت تنذر باحتمال
الجيش الصناني أمام جيش الحلفاء . فانتكر جمال أن يضم مساعدة العرب وهي آخر سهم في الكفائة

بعد يومين صاد الشيخ سظام صاعداً بجواده الى أعلى الدرج فتلقاه أحد الضباط الوطنيين .
فأله عن جمال باشا . فقال الضابط لقد فرَّ جمال فراراً العصى . لأن جيش الحلفاء احتل الآن
فلسطين ودخل في صباح اليوم حدود الشام لأن جنودنا كانت تفرّ أمامه فرار الأراب
فقال الشيخ : إن كبار جالاً فستغل هذا النصر الأجنبي لأنفسنا . وإلا فالسبب الذي
أتحدهنا لأجله قد زال وسنحل هذا الاتحاد ونضعل ذاك الاستقلال الذي مينا النفس به
لقد صار في خبر كان

هذا ما كان يجب أن يكون فملاً لا قصة على الورق . ولكن بعد «تخراب الصرة»
اجتمع كبار العرب وألقوا الجامعة، العربية ثم جاءت الحرب الصهيونية فكانت امتحاناً لها
فانجحت في الامتحان .

ترى هل يمكن أن ينجح العرب في اتحاد جديد يصد عنهم المدور البدود العنيد ؟
ترى هل يقوم فيهم شيخ كالشيخ سظام المرهم فيجمع كلهم ويقود حركتهم
ويخمس السنة الطرقة منهم . إن الله على كل شيء قدير .
(ند)